دور اللغة والأدب فى بناء القومية العربية

للأستاذ محمد خلف الله أحمد
رئيس قسم البحوث اللغوية والأدبية
ومدير المعهد .

بدأت « القومية العربية » فى السنوات الأخيرة مرحلة جديدة من تاريخها ، إذ أخذت تؤتى ثمارها فى تنشيط الوعى الجماعى فى الأمة العربية الكبرى ، وتوجيه طاقاتها المكافحة إلى تحقيق الغايات والأهداف المشتركة ، كما أصبح لها فى حركات التحرر دور قيادى ، وفى ميدان السياسة الدولية صوت مسموع وقوة يحسب حسابها ؛ ومن ثم اتجه البحث العلمى إلى توضيح مفهوم هذه القومية ، وأصول فلسفتها ، ودراسة نشأتها ، وأطوار نموها ، وموقفها من تحديات العصر الحاضر ، ومكانها فى الاستراتيجية العربية المعاصرة[1] .

ومن الطبيعى فى مثل هذه الدراسة أن يبدأ الباحثون بتحديد الروابط أو المقومات الخاصة التى يقوم عليها تصور القومية عامة ، ثم ينتقلوا إلى تطبيق هذه المفاهيم على القومية العربية ، وإلى إبراز العناصر الأساسية المكونة لها .

---

(١) يضطلع بالجزء الأكبر من هذه المهمة معهد البحوث والدراسات العربية الذى أنشأته جامعة الدول العربية سنة ١٩٥٣ — ومقره القاهرة ، والذى أخذ الآن مكانه بين الأجهزة الرئيسية التى تقوم عليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . ويعد المعهد عدته لعقد ندوة إقليمية (فى شهر مايو / آيار ١٩٧٣) لبحث الأصول التاريخية للقومية العربية ، وأهدافها ، وموقفها من تحديات العصر . وقد أصدر بهذه المناسبة قائمة ببليوجرافية (رقم ١٩٧٢/٧) تعرف بما تضمه مكتبته (خمسون ألف مجلد) من المراجع العربية (١٦٩ مرجعاً) والإفرنجية (٤٤ مرجعاً) فى دراسات القومية ، والقومية العربية ، كما يصدر تباعاً قوائم بما تقتنيه المكتبة من البحوث والكتب فى القضايا القومية العربية عامة وقضية فلسطين خاصة .

والذى يتتبع ما ظهر من البحوث والكتب فى هذه الدراسة باللغة العربية وباللغات الأجنبية يتبين فيها اتجاهين رئيسين : أحدهما يرجع القومية إلى أصلين كبيرين : وحدة اللغة ، والاشتراك فى التاريخ . فالوحدة اللغوية هى أساس وحـــدة الشعور والتفكير والعواطف فى الأفراد والجماعات ، والاشتراك فى التاريخ هوأساس القرابة والترابط المعنوى ، وهاتان هما الناحيتان اللتان تميزان أمة عن أخرى ، وتعطيان القومية حقيقة ووجوداً وكياناً مستقلا . والاتجاه الثانى يذهب إلى التوسع فى تعداد العناصر والصفات المشتركة التى إذا اجتمعت لمجموعة بشرية أعطتها اسم الأمة ، وحققت لها معنى القومية . وأصحاب هذا الرأى كسابقيهم يعدون فى مقدمة تلك العناصر وحدة اللغة ، ثم يضيفون عناصر أخرى — جغرافية وتاريخية واقتصادية وثقافية — كالتعايش المشترك على أرض معينة ولمدة طويلة من الزمن ، والمصالح والأهداف المشتركة ، والتكامل الاقتصادى ، والتجانس العقلى والروحى .

وسواء أخذنا برأى القائلين بتركيز العناصر فى اثنين رئيسين ، أم برأى الذين يتوسعون فيضيفون عناصر أخرى — هى فى الواقع من لوازم اجتماع العنصرين الأولين وآثاره — فإن هناك حقيقتين أساسيتين لاخلاف فيهما : الأولى أن تلك المقومات متحققة فى الأمة العربية التى تقطن الوطن العربى الأكبر من الخليج شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط شمالا إلى المحيط الهندى وأواسط أفريقية جنوبا . فهى أمة تمثل — فى نظم الإنسانية الحاضرة وتصوراتها السياسية — قومية واضحة المعالم مكتملة الخصائص ، محددة الأطُر التاريخية والجغرافية ، توافرت فيها وحدة اللغة والتراث ، والتقاليد والمثُل ، وتمازجت فيها الأنساب والسلالات وتعايشت فيها النحل والعقائد ، وربط بينها الاشتراك فى الأهداف والمصالح والتطور الحضارى . والحقيقة الثانية أن الركن الأساسى فى بناء هذه القومية هو اللغة العربية الفصحى التى تمتاز من بين لغات العالم الكبرى بتاريخها الطويل

المتصل، وثروتها الفكرية والأدبية الخصبة، وحضارتها الإسلامية التى وصلت قديم الإنسانية بحديثها ، وقيمها الروحية والأخلاقية والاجتماعية النابعة من الرسالات السماوية الكبرى .

وهذه الحقيقة الثانية يؤيدها التاريخ تأييداً قاطعاً ، فإن حياة العروبة منذ نشأتها فى شبه الجزيرة حتى إحياء دعوة القومية العربية فى المرحلة الحاضرة من نهضتها قد ارتبطت باللغة العربية الفصحى ارتباطا وثيقا فى كل أدوار تاريخها الطويل : فاستندت إليها فى مهدها، وفى نموها واتساعها ، واعتصمت بها فى فترات انكماشها . واستمدت منها القوة والإلهام فى يقظتها الحديثة .

* * *

لقد ظل عرب شبه الجزيرة زمنا فى جاهليتهم ، وهم قبائل متفرقة ، لكل منها لهجتها وخصائص لسانها . ثم أخذت تلك اللهجات تتقارب ، وتعمل فيها عوامل الامتزاج والتنقيح والاختيار ، حتى برزت من بينها لغة موحدة ، اصطنعها كبار الشعراء فى المواسم والأسواق العامة ، وتناقل الرواة أجود الشعر بها فى سائر أنحاء الجزيرة ، وأصبح ذلك الأدب الموحد اللسان ديوانا للعرب فى معارفهم ، وفى نماذج أخلاقهم ومُثُلهم الفردية والاجتماعية . فكان ذلك إيذانا بمولد الشخصية العربية ، وإرساء الحجر الأساسى فى بناء قوميتها ، وتمهيداً ضروريا للانطلاقة الكبرى التى حققها العرب تحت راية الحضارة الإسلامية : وقد ظهر فيهم — فى أوائل القرن السابع الميلادى — رسول منهم ، حررهم من الأوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية الفاسدة ، وجمعهم على عقيدة التوحيد ، وجاءت آيته الدالة على صدق رسالته ، فى صورة كتاب عربى مبين ، معجز فى نظمه ، بالغ فى روعته وتأثيره ، جامع لما تتطلبه الحياة الفاضلة والدعوة الرشيدة من أصول الإيمان ومبادىء التشريع ، وقواعد السلوك وحرية الفكر والاعتقاد وأخبار الأمم الماضية ، وقصص الأنبياء والرسل ، فوجد العرب فى هذا الكتاب صورة مثالية من عبقرية

لغتهم الموحدة ، تحددت بها النماذج العليا للفصاحة والبلاغة فى بيانهم ، وضمن بها الانتشار والخلود لهذه اللغة ، التى أصبحت لسان الرسالة السماوية ، وحاملة مشعلها إلى جميع الألسنة والأجناس . وقد حرص صاحب الدعوة على أن يعطى العروبة فى هذا المجتمع المثالى مفهوما جديداً ، فنبه – فيما روى عنه – إلى أنها عروبة لسان ، لا عروبة سلالة أو عصبية .

بهذا تحققت الخطوة الثانية فى نمو الشخصية العربية واتساع كيانها ، وتهيأ المسرح لظهور أمة مؤمنة موحدة المشاعر واللسان . وتحررت الطاقات الروحية والعقلية للعرب – تحت راية التطور الجديد – فانطلقوا ينشرون دعوة التوحيد . ويحررون شعوب الأرض من سلطان العقائد الفاسدة ، ويبيعون أرواحهم بيع السماح فى سبيل الدفاع عن الدين الحق ، ويسجلون أروع ماعرفت البشرية من صفات البطولة والنبل والمروءة والتسامح والإخاء والعدالة بين الناس ، وأقبلوا وأقبلت الشعوب المستظلة بظل حكمهم على كتاب هذا الدين يدرسونه ويستنبطون منه ماشاءت لهم طاقاتهم أن يستنبطوا من دراسات ، وعلى لغته الفصحى ينهضون بفنونها وعلومها ، ويسجلون بها روائع الفكر والأدب . وشهد العالم نشوء حضارة عالمية شاملة ، تفسح صدرها لجميع الثقافات ، وتوفر حرية الضمير والاعتقاد لكل مواطن ، وتتخذ من لغتها الفصحى رابطة إنسانية متينة ، توحد بين شعوبها فى الفكر والحياة ، وتساهم فى رقى البشرية فى كل ميدان من ميادين المعارف والعلوم والفنون .

وقد أدرك علماء القرون الهجرية الأولى – وبخاصة القرنان الثالث والرابع – بثاقب فكرهم دور اللغة الفصحى فى ربط حياة هذا العالم الإسلامى فى حضارته ، العربى فى كتابه وثقافته ، برباط متين ، وما يتهدد هذه الوحدة من عوامل التفكك والتفرق إذا تُركت تلك الرابطة من غير تقنين وتنظيم ، وإذا سُمح لعوارض اللحن وخصائص اللهجات الدارجة أن تطغى على الفصحى ، أو تنتقص من مظاهر الولاء لها . لهذا قاموا بحركتهم الأكاديمية الموفقة فى جمع اللغة العربية ، وتمييز فصيحها وغريبها وقياسيها وشاذها ، وفى تدوين أدبها الذى

كان يعتمد فى مراحله الأولى على الرواية ، وحفظه من الضياع والخلط والاضطراب ، وفى وضع المعايير المقننة للغة وأدبها وبلاغتها . ولم يكن مجهود هؤلاء العلماء فى حفظ اللغة والأدب ونهضة دراساتهما بأقل من جهود علماء الشريعة فى خدمة الدراسات القرآنية ، وجمع السنة وضبط رواية الحديث ، وتطور الفقه والتشريع . وقد أخذت حركة اللغويين العرب مكانها بين الحركات الخالدة فى تاريخ الفكر واللغات الكبرى ، وبرهنت أن أثرها فى قيام الوحدة العربية فى العصر الإسلامى لم يكن بأقل من أثر ظهور اللغة الموحدة فى جمع صفوف العرب فى شبه جزيرتهم قبل الإسلام ، وفى إعدادهم لتقبل رسالة التوحيد ونشرها فى جميع الأرجاء .

ازدهرت هذه الحضارة العربية بضعة قرون ، أصبحت فيها لغتها الفصحى المقننة لغة البحث والدرس والكتابة والأدب الرفيع ، فى تلك الرقعة الفسيحة من العالم القديم المتصلة من أواسط آسيا إلى شواطىء المحيط الأطلسى ، وقامت الدراسات العلمية على قدم وساق فى مراكز العلم التى انبثقت فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ، وأصبحت المدارس والجامعات العربية كعبة طلاب العلم من شتى الممالك والأقطار ، وأثرت الكتب العربية — الفلسفية والعلمية والأدبية — من طريق الترجمة والدراسة — أثرها فى إيقاظ العقل الأوربى فى بواكير عصر الإحياء ، وسجل الغرب على لسان المنصفين من علمائه المحدثين ماكان لحضارات الشرق عليه من فضل يرجع معظمه إلى ذخائر الفكر والمعرفة العربية ، التى جمعت — إلى نتاج نهضتها فى العصر الإسلامى — ثمار الثقافات القديمة من يونانية وفارسية وغيرها .

وإن نظرة إلى نظم التربية الإسلامية خلال العصور فى مراكزها — المنبثة من شرق العالم الإسلامى إلى المغرب والأندلس — لتكشف عن عظم هذه الرابطة اللغوية التى جعلت من معارف تلك الأقطار الشاسعة تراثا واحداً متميز السمات والخصائص ، تتماسك حلقاته ، وتتعاون مدارسه ، وينتقل علماؤه ومثقفوه كيف شاءوا من مدينة إلى مدينة ، ومن جامعة إلى جامعة

يتجادلون ويتناظرون ، ويتبادلون الكتب والدراسات ، ويتولون مناصب القضاء والافتاء والتدريس والإدارة فى البلاد التى يرحلون إليها ويقيمون فيها، لايحول دون الإفادة منهم اختلاف نسب أو دين أو بُعْد دار ، ومايقال عن العلماء والدارسين يصدق على الأدباء والمتفننين والرحالة والحجاج والتجار وغيرهم ، فكل بلد من بلاد العربية وطن لكل متكلم بها ، وتيارات العلم والأدب والثقافة والفن غادية رائحة فى محيط ذلك العالم العربى الإسلامى الزاخر .

* * *

وحين شاءت عوامل التطور التاريخى أن تتحدد معالم المجتمع الناطق بالعربية داخل إطارها الذى نعرفه اليوم من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ، وأن تحل اللغات المحلية محل العربية فيما وراء ذلك من أقطار العالم الإسلامى ، وأن تغرب شمس الحضارة العربية والإسلامية فى الأندلس، وأن تضعف شوكة العرب بما سيطر على أقطارهم من سلطان أجنبى ، بقيت اللغة الفصحى تؤدى دورها الضرورى فى ناحيتين هامتين : الأولى حفظ التراث العربى الإسلامى باستمرار دراسته فى الجامعات الإسلامية فى بلاد العروبة ، حتى تبعثه وتجدده يد العروبة مرة أخرى فى نهضتها الحديثة ، والثانية تعهد الشعور بالعروبة فى صدور أبنائها، وحراسة وحدتهم من أن تعبث بها دسائس الغزو والاستعمار وحفظ شخصيتهم العربية من أن تتلاشى أمام أى لون من ألوان السيطرة الأجنبية ، حتى يجىء اليوم الذى يستيقظ فيه العرب ، ويتحررون من سلطان الدخيل ، ويستعيدون ثقتهم بأنفسهم ، ويعودون إلى عناصر وحدتهم ينفضون عنها الغبار ، ويصقلونها ، ويصنعون منها قوميتهم العربية فى مفهومها المتطور الجديد .

على أن هناك خدمة أخرى أدتها اللغة الفصحى — وستظل تؤديها — للقومية العربية : ذلك أنها بقيت وستبقى رباطا هاما بين العالم العربى — وهو إحدى الوحدات الرئيسية للعالم الإسلامى ومركز إشعاعه الروحى —

وبين سائر الوحدات الإسلامية الكبرى التى تصطنع فى ثقافتها وحياتها لغاتها الوطنية أولغات أخرى . فالمسلمون اليوم فى أندونيسيا وباكستان وغيرهما من بلاد آسيا وأفريقيا يحسون بالحب والولاء للغة العربية — لغة كتابهم ودينهم الذى تدين به أغلبيتهم ، ويزداد حرصهم من يوم إلى آخر على تزويد شبابهم بها ، ويطالبون بلاد العروبة بأن تمدهم بمزيد من الأساتذة والمعلمين يقومون على نشر اللغة العربية فى مدارسهم وجامعاتهم . ويقترح بعضهم أن تصبح اللغة العربية الفصحى إحدى اللغات الأساسية فى أنظمة تعليمهم وثقافتهم. وطبيعى أن يكون هذا الاشتراك فى الروابط الروحية واللغوية أساسا لتقوية الإحساس بالإخاء والمشاركة الوجدانية ، وتبادل المنفعة والنصرة بين العالم العربى والعالم الإسلامى الأكبر .

* * *

ومضى الزمن فى دورته ، وجاء القرن التاسع عشر ، وتجاوبت دعوات الإصلاح والإحياء فى الشرق كله ، ودبت الحياة من جديد فى أقطار العروبة : فمن مناداة باصلاح الاجتماع وتجديد الثقافة والفكر ، والأخذ بحظ من العلم الحديث ، إلى كفاح فى سبيل التحرر من الحكم الأجنبى ، إلى تأليف جمعيات للمطالبة بحقوق العرب واحترام كيانهم وشخصيتهم . وأخذ كُتّاب العربية وشعراؤها من مسلمين ومسيحيين طوال المائة السنة الأخيرة يعزفون ألحانا مثيرة على قيثارة العروبة ، ويستعيدون ذكريات الماضى ومجاداته ، ويوسعون آفاق اللغة العربية بما ينقلون إليها من معارف وثقافات . ويعودون بالأدب العربى إلى عصوره الذهبية فى صدر الإسلام وأيام الازدهار العباسى ، ثم يهيئون له من العوامل والأسباب ما يجدد حياته ويستكمل فنونه . واتجهت أنظار العرب إلى لغتهم ليبعثوا فيها النشا والقوة ، ويزيدوا فى قدرتها على الوفاء بمطالب النهضة الحديثة . ثم لم تلبث أن برزت أمامهم مشكلتان كبيرتان تتصلان باللغة وحياتها ومقوماتها : الأولى مشكلة المصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة والمسميات الحديثة التى جلبتها معها حضارة الغرب ، والثانية مشكلة العامية

التى بدأ يثيرها طائفة من الموظفين الأجانب ، وبعض غلاة المستشرقين منذ أواخر القرن الماضى ، مدعين أن سبب تأخر العرب هو تمسكهم بلغتهم الفصحى التى طال عليها القِدم ، فلم تعد — فى زعم أولئك الدعاة — صالحة للحياة الجديدة ، وأن سبيل النجاح لكل بلد عربى هو استعمال لغته الدارجة ، ورفعها إلى مصاف اللغات الراقية . راح هؤلاء يقيسون اللهجات العربية الدارجة — فى صلتها بالفصحى — على اللغات الرومانسية الحديثة فى صلتها باللاتينية . ولم يَخْفَ على العرب ماتحمله دعوة العامية فى طياتها (عن سوء قصد ، أو — على أقل تقدير — عن جهل بتاريخ العرب وثقافتهم ومكان لغتهم من كيان شخصيتهم) من أخطار على الوحدة التى نهضوا يقيمون أسسها ويعملون على دعمها . لهذا وجه كثير من المفكرين العرب جهودهم إلى مقاومة هذه الدعوة ، سالكين لذلك شتى الطرق والأساليب : فمنهم من أثار النقاش العلمى فى أمر الفصحى والعامية فى بحوث قدموها لمؤتمرات المستشرقين فى أوربا — كالذى صنع «أمين (باشا) فكرى» فى بحثه الذى قدمه لمؤتمر استوكهولم سنة ١٨٨٩ بعنوان : « فى إبطال رأى القائلين بتعويض اللغة العربية الصحيحة باللغة العامية فى الكتب والكتابة » . ومنهم من ناقش موضوع الدخيل والعامية على صفحات المجلات والجرائد العربية : « كالجوائب والهلال والبيان والمقتطف والأستاذ » . وربما دعوا لعقد الندوات العلمية لدراسة هذا الموضوع — كالذى فعل نادى دار العلوم فى مصر سنة ١٩٠٨ — حين دعا رئيسه «حفنى ناصف» جمهرة الباحثين لمناقشة موضوع المسميات الحديثة. ووصل فى نهاية النقاش إلى قرار إجماعى يوصى بالمحافظة على الفصحى ، وتهيئتها للتعبير عن نواحى النهضة الفكرية والعلمية والاجتماعية فى البلاد العربية ، ويقترح إنشاء مجمع لغوى للتوجيه فى شئون اللغة . ومن المصلحين فريق على رأسهم الشيخ « محمد عبده » ، وجهوا همهم إلى إصلاح أساليب الكتابة العربية وتحريرها من قيود الزخرف والصناعة المسرفة التى أثقلتها فى عصور الضعف والخمود ، حتى تساير ركب الحياة الجديدة ، وتخرس

ألسنة المتخرصين عليها ، والمشككين فى قدرتها على الحياة والتطور . وفريق من الباحثين دعوا إلى سلوك طريق المصالحة بين الفصحى والعامية ، بأن يحاول الكتاب تيسير الأساليب الفصيحة وتقريبها إلى آذهان جمهرة الشعب ، والإفادة — من جهة أخرى — فى الكتابة الفصيحة بما تتضمنه لغة الشعب اليومية من العناصر الأصيلة الصالحة ، حتى يجىء الوقت الذى تنمحى فيه تلك الثنائية المعطلة للجهود ، وتصبح اللغة الصحيحة لغة الثقافة والحياة معا .

كان هذا يجرى فى الأندية والصحف والمجلات والمؤتمرات ، وكانت هناك بجانبه حركة دائبة فى تطور الكتابة والتأليف باللغة العربية على يد « رفاعة » و « عبد الله فكرى » و « على مبارك » و « محمد عبده » و « قاسم أمين » و « فتحى زغلول » وأضرابهم ، وفى تجديد الدراسات فى علوم اللغة العربية على يد « حسين المرصفى » و « حفنى ناصف » وآل « اليازجى » و « البستانى » ، وغيرهم ، واستلزم الموقف التفكير فى إعداد مدرسين للغة العربية وآدابها من طراز حديث يلائم النهضة التعليمية فى البلاد ، وفى إنشاء مجامع تتولى توجيه التفكير اللغوى وتعمل على سلامة اللغة ودراسة ظواهرها وإحياء تراثها ، ووفائها بمطالب الحياة الحديثة المتجددة .

وكما تناول التطوير اللغة الفصحى وعلومها ومدرسيها ، تناول الأدب العربى وفنونه : فعمل « شوقى » ومعاصروه فى أقطار العروبة على وصل الشعر بحياة الأمم العربية والإسلامية تسجيلاً ونقداً وتوجيهاً ، وعلى إدخال الفن المسرحى فى الشعر العربى ، وعمل « مطران » و « العقاد » و « شكرى » وبعض شعراء المهاجر على توجيه الشعر العربى الحديث وجهة فنية تحقق للقصيدة العربية صفتى الوحدة والصدق وهما المقوم الأساسى للعمل الفنى الجيد . وطوّر الكتاب من أمثال « هيكل » و « طه حسين » و « أحمد أمين » و « الحكيم » و « تيمور » و « العقاد » و « المازنى » و « الزيات » و « فريد أبو حديد » و « جبران » و « نعيمة » وغيرهم فنون الكتابة النثرية من نقد وتراجم حياة

وقصص وروايات ، فأكملوا بذلك ما كان يؤخذ على الأدب العربى من نقص الفن القصصى ، وهيأوا لأدبنا الحديث مكانا بين الآداب العالمية المعاصرة .

وهكذا سايرت اللغة الفصحى وآدابها وعلومها نهضة العالم العربى الحديث ، وقامت بدورها التاريخى فى دعم الوحدة العربية فى فلسفتها الجديدة ، وعرف العرب كيف يحافظون على الأساس الأول فى بناء قوميتهم وهو عروبة اللسان . وكيف يدفعون عنه عوادى الدخيل والعامى ، ثم عرفوا كيف يتخذون من تراث لغتهم الفصحى غذاءً لعقولهم وقواما لشخصيتهم ، ومن آدابها إذكاءً لعواطفهم وإلهاما لمشاعرهم ، وبعثا لعزائمهم ، وصلة بين ماضيهم وحاضرهم .

* * *

وبعد فإذا كانت اللغة فى طبيعتها لفظاً وتعبيراً ، فإنها فى ثمرتها ومضمونها علم وأدب ، وتراث وثقافة ، وأفكار ومشاعر . وإذا كانت وحدتها التعبيرية عنصراً أساسياً فى بناء القومية العربية ، فإن تراثها الثقافى عامل فعال فى دعم تلك القومية ، وفى ربط نفوس أصحابها وعقولهم برباط من الاشتراك والتعاون . وإذن فالحديث عن دور الفصحى فى بناء القومية العربية يجب أن يُبرز دور تراثها فى ذلك البناء — وقد أشرنا فى سياق حديثنا عن الفصحى إشارات مجملة إلى الآداب والعلوم العربية واستمرار تاريخها ، وأثر ذلك فى استمرار الشعور بالوحدة . ومن الخير أن نعود إلى هذا الإجمال بشىء من البسط فنقول : إن نماذج الأدب العربى قد وضعت أصولها فى المرحلة السابقة للإسلام — وهى تمثل فنا شعريا راقيا وألوانا من النثر فى صورة أمثال وحِكم وخطب بليغة . وقد ضمن لنا الاستمرار اللغوى بقاء تلك النماذج بما فيها من شحنات قومية ، واستمرار متعتنا وتأثرنا بها جيلا بعد جيل . فمازلنا — وسنظل — نستمتع ونتأثر بشعر الحماسة العربية القديمة وما ضم من مُثُل المروءة والنبل والفتوة ، وإباء الضيم وإكرام الضيف وحماية الضعيف ؛ ومازلنا — وسنظل — نطرب للشعر العاطفى الذى تأصلت

تقاليده فى أدب العرب منذ أقدم عصورهم ، والذى نما وتطور فى الحياة الإسلامية حتى أصبح مادة خصبة للقصصيين من كتابنا وشعرائنا المحدثين ؛ ومازلنا — وسنظل — نعجب بأدب الحكمة وفلسفة الحياة مما أبدعته قرائح الأفذاذ من شعراء العروبة وكتابها قديماً وحديثاً .

وجاء الإسلام فأعطانا بتلك اللغة ذاتها بياناً معجزاً ، ودستوراً خالداً للحياة والسلوك ، ومعيناً لاينضب للدرس والتأمل ، وحارساً أميناً على اللغة وعبقريتها ، واتسع البيان العربى باتساع الحياة فى عصور الازدهار الإسلامى ، وتنوعت مذاهب القول فيه بين خطابة وكتابة وشعر حضارى وتأليف فى مختلف فروع العلم . وظهر من شعراء العربية وكتابها فى تلك العصور وما تلاها فحول عبروا عن الفتوة العربية والروح القومية فى شعرهم وكتابتهم ، وخلدوا معارك العروبة وانتصاراتها على الروم والصليبيين والتتار ، كما سجلوا أروع الصور من البطولة والنجدة والسماحة العربية . وفى شعر أبى تمام والمتنبى وابن هانىء الأندلسى وأمثالهم من هذه الصور مدد لاينفد من الإلهام الذى يجد طريقه ميسراً إلى نفس كل ناطق بالعربية فى كل عصر وكل جيل .

ثم جاء العصر الحديث بنهضته وكفاحه ، فاتسعت أمام الأدب العربى آفاق القول . وترجم الشعراء والكتاب فى مختلف أقطار العروبة عن روح الجهاد وشعور التعاطف والتناصر بين البلاد العربية ، ووصلوا الحاضر بالماضى فى ذكريات العروبة ومواقفها الخالدة ، ونظموا من تلك الذكريات والمواقف ألحانا تغنى ، وأناشيد تردد ، ومسرحيات تمثل ، وتجاوبت فى ذلك أصداء الإلهام من العراق إلى البيئات العربية المهاجرة فى الأمريكتين ، وأنجبت كل بيئة من بيئات العروبة كتابا وشعراء رددوا نغمات الحرية والاستقلال والكرامة والنهضة والوحدة ، فأقاموا بذلك ركنا من أركان جهاد الأمة العربية وكفاحها . وهكذا استقام للشخصية العربية رصيد متصل الحلقات من الأدب القومى ينشر فى الأحفاد مآثر الأجداد ، وينفخ فى نفوس مائة المليون من العرب روحاً من الوحدة والمشاركة الوجدانية ، ويمد فلسفة

القومية العربية بمعين من الفن الجميل يمنحها الرى والخصب ، ويهيىء لها فى القلوب أسباب القوة والنماء . ولهذا كان حرص العرب المحدثين على أدبهم الفصيح — وعنايتهم بإبرائه من السوقية والابتذال والرياء الفنى ، وعملهم على تطويره واستكمال فنونه ، واهتمامهم بالإفادة منه فى دعم الروح القومى — متسقا مع حرصهم على لغتهم الفصحى وعنايتهم بحفظها من شوائب العجمة وعوادى العامية .

وما يقال فى التراث الأدبى يصدق على التراث الفكرى والعلمى الذى سطرته أقلام الناطقين بالضاد والمؤلفين بها فى مختلف فروع المعرفة من علوم شرعية ولغوية وأدبية ، ومن تاريخ ورحلات وفلسفة واجتماع ، ومن فلك وطب ورياضة وكيمياء وحيوان ونبات .. فإن هذا التراث الذى خلدته العبقرية العربية فى لغتها الفصحى — كان له كبير الأثر فى إغناء المعارف الإنسانية ، وقد قام — وسيبقى — شاهدا على فضل العرب على الحضارة[1] . ولهذا لم يكن عجيباً أن يعترف العالم الحديث بقيمته ، وتتنافس الأمم فى اقتناء مخطوطاته ، ويتسابق العلماء من كل جنس ولسان إلى نشره وتحقيقه ، وتنشأ لدراسته الأقسام فى كبريات الجامعات. ومن الطبيعى أن يستمد العرب المحدثون من جلال هذا التراث رصيداً من العزة والثقة ، وحافزاً على الجد والعمل ، وأن تصبح أسماء الأسلاف من العلماء والفلاسفة والمصلحين مصادر إشعاع وإلهام للأجيال العربية الصاعدة ، وأن تتجه الهيئات العلمية والقومية إلى إحياء ذكرى زعماء الفكر العربى فى مختلف عصوره ، وإلى إقامة المسابقات ، وربطها فى موضوعاتها بالمواقف الخالدة ، والأشخاص النابهين فى تاريخ

---

(١) نشرت الشعبة القومية لليونسكو فى القاهرة دراسة علمية باللغة العربية بعنوان « أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية » (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧٠) وذلك باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة — وبالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو). وقد قام بإعداد مادتها العلمية عشرة من العلماء المصريين كل فى تخصصه : فى الأدب ، والفلسفة ، والعلوم ، والطبيعة ، والطب والأقربازين ، والجغرافيا ، والمعارف الملاحية ، والتاريخ ، والعمارة ، والتحف الفنية ، والموسيقى . وأشرف على تحريرها وقدم لها م . خلف الله أحمد . وستنشر ترجماتها إلى بعض اللغات الأجنبية .

العروبة ، وأن تزداد العناية بالترجمة بين العربية ولغات العالم الكبرى ، وأن تنسق الجهود المبذولة فى إحياء التراث العربى وتطوير الحركة العلمية العربية ، والمساهمة مرة أخرى فى إغناء الثقافة الإنسانية .

وقد أدركت التربية العربية الحديثة — كما أدركت التربية العربية فى مراحل تاريخها — دور الفصحى وتراثها الأدبى والعلمى فى بناء القومية العربية ، فتواصت المؤتمرات الثقافية — واحداً بعد آخر — بضرورة العناية باللغة ، وتوفير قدر مشترك من مناهجها فى مراحل التعليم العام لجميع تلاميذ البلاد العربية ، وبتهيئة الفرص لهم لتذوق النصوص الأدبية الجيدة نثرها وشعرها ، ومطالعة الكتب التى تنمى فيهم الإحساس المشترك بالعروبة والولاء لها والعمل على رقيها ، ودراسة سير الأبطال والمصلحين من رجال العروبة فى مختلف بيئاتها وأطوار تاريخها ، حتى ينشأ الشباب معتزين بأمتهم ، واثقين بأنفسهم ، مستعدين لترسم خطى آبائهم وأسلافهم . وكان على الجامعات ومعاهد البحوث — وهى من أركان النهضة والوحدة العربية — أن تبذل مجهوداً جديداً فى حركة التطوير اللغوى ، وكان بعضها — ولاسيما العلمية منها — لايزال يصطنع فى تدريسه ومحاضراته واحدة أو أخرى من اللغات الأجنبية ، فاستقر الرأى على ضرورة تعريب جميع الدراسات[1] . حتى تقوم اللغة العربية بدورها كاملا فى

---

(١) عقد اتحاد الجامعات العربية مؤتمره العام الثانى بالقاهرة فى المدة من ٧ — ١٤ فبراير (شباط) ١٩٧٣ ودارت بحوثه ومناقشاته حول موضوعين رئيسيين : أحدهما الجامعات العربية والمجتمع العربى المعاصر ، وثانيهما استخدام اللغة العربية فى التعليم العالى والجامعى ، وأصدرت الأمانة العامة للاتحاد بهذه المناسبة كتاباً (فى حوالى خمسمائة صفحة) يضم البحوث التى قدمها أساتذة من مختلف الجامعات العربية فى معالجة الموضوعين الرئيسيين ، وكان نصيب استخدام اللغة العربية فى التعليم العالى من هذه سبعة بحوث تناولت طبيعة المرحلة الحاضرة فى حياة الأمة العربية وما تقتضيه الاعتبارات القومية والعلمية والفكرية من العناية بالركن الأساسى فى بناء القومية والشخصية العربية وهو اللغة الفصحى ، وضرورة استخدامها فى التعليم العالى كله . كما تناولت البحوث طبيعة اللغة العربية وأصالتها وإنجازاتها فى تاريخها الطويل المستمر وقدرتها على مواكبة التطور الحضارى والعلمى ، وغنى طاقاتها التعبيرية ، وأبرزت المناقشات بعض الصعوبات التى تعترض تعريب التعليم العالى فى مواده العلمية ، وضرورة التخطيط العلمى للتغلب على =

التنشئة الصحيحة للشباب العربى ، وفى تثقيفه ثقافة قومية شاملة ، وحتى يزول من شخصية الشباب المثقف ذلك الانفصام الفكرى بين حياة قومية وعلم أجنبى .

وقد خطا التعريب فى ميادين العلوم خطوات موفقة ، وسيوالى ترقيه التدريجى فى سنوات الدراسة الجامعية حتى يتم سيره فى بضعة أعوام . واستلزمت هذه الحركة من جانب الهيئات والمجالس والمجامع جهداً ضخماً فى ترجمة الكتب العلمية وفى الاتفاق على المصطلحات العربية أو المعربة التى تتطلبها حركة تعريب الدراسات . وأثمر هذا المجهود حتى اليوم مئات الكتب المترجمة ، وعشرات الألوف من المصطلحات التى أخذ بعضها طريقه إلى حجرات الدرس فى الجامعات والمعاهد العربية . ومن الواضح أن الاهتمام الذى وجهته — ولاتزال توجهه — التربية العربية الحديثة إلى اللغة الفصيحة وتراثها ، والمجهود الذى بذله — ولايزال يبذله علماء النهضة العربية الحديثة فى خدمة اللغة القومية — لايقلان فى عظم شأنهما وبعد أثرهما فى دعم الوحدة العربية عن المجهود الذى قام به علماء الدراسات الإنسانية من العرب فى القرون الهجرية الأولى ، فى تقنين اللغة وتدوين الأدب ، وترجمة تراث الأمم القديمة إلى اللغة العربية ، وخلق حضارة عالمية ، إنسانية المثل ، عربية اللسان .

= تلك الصعوبات ، كما تضمنت البحوث والمناقشات إشادة بالجهود التى بذلتها وتبذلها المجامع والهيئات والاتحادات العلمية فى الوطن العربى فى هذا المضمار ، وتوجيهاً إلى مزيد من الوسائل الناجعة فى إنجاح عملية التعريب ، والتوصية بما يلى : —

١ — التوسع فى استخدام اللغة العربية فى التعليم العالى والجامعى ، وصولا إلى التطبيق الشامل لها وفق خطة زمنية ، مع العناية بمستوى اللغة العربية فى الجامعات .

٢ — عقد ندوة خاصة تشترك فيها الجامعات العربية لمناقشة الجوانب التطبيقية فى استخدام اللغة العربية فى التعليم العالى الجامعى .

٣ — التنسيق بين المجامع اللغوية والعلمية فى الوطن العربى فى الجهود التى تبذلها فى سبيل وضع المعاجم العلمية وتشجيع التأليف وترجمة الكتب والمستخلصات العلمية إلى اللغة العربية .

٤ — توفير الكتاب العربى الجامعى والمعاجم والقواميس الخاصة بالمصطلحات العلمية والأطالس لتكون فى متناول أعضاء هيئات التدريس والأفراد العلميين بالجامعات .